البحث
١

# الملبس والهوية الثقافية

## دراسة انثروبولوجية لمفهوم « الموضة»


إعـــداد

د / مصطفى عبد الفتاح السخاوى

كلية الآداب – جامعة المنوفية

# الملبس والهوية الثقافية

## دراسة انثروبولوجية لمفهوم "الموضة"

إعداد

دكتور / مصطفي عبد الفتاح السخاوى

---

## ١-التعريفات :

يعتبر الملبس من أهم عناصر الثقافة المادية التي تحدد - ظاهرياً على الأقل - انتماء الفرد إلى جماعة ثقافية أو عرقية معينة ٠ وينعكس ذلك بصورة واضحة في التنوع الهائل في الخامات المستخدمة في صنع الملابس ، وهو تنوع يرتبط عادة بتنوع البيئات الجغرافية التي يعيش فيها الإنسان ، كما ينعكس في تنوع الألوان والطرازات التي يكون لمنظومة القيم الثقافية السائدة دور كبير في اختيارها ٠

كما يعتبر الملبس (وما يقوم الإنسان بنقشه على جسمه من علامات ، وما يتخذ من وسائل التجميل باعتبار ذلك من ملحقات أو مكملات الملبس) وسيلة تحدد العلاقة بين جسم الإنسان والعالم الذي يعيش فيه من ناحية وبين جسمه والأجسام الأخرى من ناحية أخرى [١] ٠

ورغم أن الأصول الأولى للملبس والزينة مازالت غامضة فإنه يبدو أن هناك دوافع عالمية وراء جميع أشكال السلوك المرتبطة بالملبس ٠ وربما تطورت الملابس الأولى من الحاجة إلى الاحتماء من البرد الشديد ٠ إلا أن الإنسان ما إن اطمأن إلى قدرته على الحصول على احتياجاته الجسدية حتى بدأ في ابتكار وتجميع أشياء من شأنها أن تحقق له مكانة أكبر (بين أقرانه) ٠ وقد يكون بمقدور الإنسان الغنى أن يرتدى قدراً أكبر من المجوهرات أو نوعية من الملابس أكثر فخامة ، ولكن الجوانب الوظيفية للملبس تبقى هي نفس الجوانب التي يشترك فيها الغنى مع الفقير [٢] ٠

وتتجلى وظيفية الملبس من حيث هو وسيلة تكيف وتأقلم مع الظروف المناخية المتطرفة في اتخاذ سكان المناطق القطبية لملابس تغطى جميع أجزاء الجسم وتلتصق به التصاقاً شديداً ، وربما يرجع أصل السروال (البنطلون) إلى المنطقة القطبية حيث هناك حاجة إلى نوعية من الملابس تغطى الأطراف بإحكام للمحافظة على درجة حرارة الجسم [٣] ، كما تتجلى هذه الوظيفية ذاتها في اتخاذ سكان المناطق الإستوائية لملابس واسعة ربما بدأت بما يشبه التنورة المعلقة من حزام حول مفصل الورك ، وتصنع الملابس الاستوائية عادة من مادة نباتية [٤] .

ومن ناحية أخرى فإنه يمكن تتبع أول رموز للمكانة في تاريخ الإنسان إلى العصر الحجري عندما كان الصياد يزين نفسه بقرون الوعل أو جلود الحيوانات التي قتلها كإشارة أو علامة على إنجازه ، وفي العادة كان قائد الجماعة أو القبيلة يُمنح علامة مميزة في الملبس لإبراز مركزه ، ومن هذه البدايات تطورت مجموعة معقدة من عمليات المفاضلة بين المكانات كالتيجان التي يلبسها الملوك والملكات والأردية التي كان يرتديها البابوات وكبار رجال الدين والعباءات التي يرتديها رجال الجامعة والأزياء الموحدة بصفة عامة التي تدل على رجال الشرطة والرهبان والقضاة ورجال البريد والبحارة والطهاة والبوابين .. الخ [٥] .

ومن هنا فإن الملبس بأشكاله وألوانه التي تتباين تبايناً شديداً يعتبر رمزاً للانسجام الاجتماعي والمرتبة الاجتماعية ، كما أنه يعتبر علامة على مهنة الشخص ، ويعتبر الملبس العرقي Ethnic Clothing علامة على انتماء الشخص إلى جماعة معينة [٦] ، ويتمثل هذا الرمز في أي شئ يستخدم لتغطية جسم الإنسان وجذب الانتباه إليه ، فيعرف على هذا الأساس على أنه أية زينة جسدية أو أي تغيير في مظهر الإنسان (فيشمل بذلك بعض السمات الثقافية كالوشم وأدوات التجميل وطرق تصفيف الشعر وما إلى ذلك [٧] .

وفضلاً عن وظيفة الملبس كوسيلة لتحديد هوية الإنسان وخلق الإحساس بالانتماء والمحافظة على صحة الجسم وراحته فإنه يلعب دوراً كبيراً في تأسيس

جنس الفرد كذكر أو أنثى ، وفي دعم الجاذبية الجنسية ، وكامتداد لجسم الإنسان، بالإضافة إلى الوظيفة الطقسية للملابس وهي وظيفة ترتبط بدورة الحياة في جميع المجتمعات البشرية تقريباً ، فلكل مرحلة من مراحل هذه الدورة ملبس خاص يرتبط بها ، كارتباط طقوس الزواج بالملابس البيضاء وطقوس الموت بالملابس السوداء مثلاً .

وفي مقابل هذا المفهوم الأنثروبولوجي للملبس كوسيلة تكيف مع البيئة من ناحية ، وكرمز له دلالته في تحديد ملامح الهوية الثقافية والبناء الاجتماعي من ناحية أخرى ، برز في القرن العشرين مفهوم لا يقل أهمية عن مفهوم الملبس بصفة عامة ، ونعني بذلك انتشار شكل معين من أشكال الملبس في فترة زمنية معينة من تاريخ الجماعة وبين أفراد فئات اجتماعية معينة . وقد يطلق على هذا الشكل تعريف الزي السائد أو زي الصفوة أو زي الطبقة الراقية في المجتمع ، وهو شكل من الملبس لم يعرف له العرب مصطلحاً خاصاً به يدل على المعنى الدقيق الذي تحمله اللفظة الأجنبية الدالة عليه في الثقافة الغربية ، الأمر الذي حدا ببعض العلماء إلى تبني المصطلح الغربي لهذا المفهوم وهو الموضة (أو " المودة " كما يكتبها بعض الكُتَّاب) . تعريباً لكلمة Mode المستخدمة في أهم اللغات الأوروبية كالإنجليزية والفرنسية والألمانية والأسبانية .

وبصفة عامة فإنه يمكن تعريف الموضة بأنها عناصر أو أنماط سلوكية لا منطقية وانتقالية تعاود الظهور في المجتمعات التي لا توجد بها رموز مستقرة للمكانة في الوقت الذي يسعى أعضاؤها للحصول على اعتراف بمكانتهم والتعبير عن ذواتهم من خلال الميل إلى محاكاة الصفوة وهذا التقليد يمثل قنوات التعبير عن الأذواق الجماعية مما يؤثر بدوره في إحداث تغييرات أساسية في الحياة الذاتية للأفراد وفي نظامهم المعياري [٨] .

أما من الناحية التخصصية فقد أوردت مارلين هورن Marilyn J.Horn في كتابها القيّم " الجلد الثاني " (The Second Skin) عدداً من التعريفات لمصطلحات ارتبطت في الثقافة الغربية بمفهوم الموضة نوردها فيما يلي لفائدتها في تحليل

العلاقة بين الملبس كمفهوم عام والموضة باعتبارها خروجاً على هـذا المفـهوم يتخذ أشكالاً متعددة ٠

١-نموذج الملبس Clothing Norm

يمثل نموذج الملبس الطريقة النموذجية أو المقبولة لارتداء الملابس كما تظهر في جماعة اجتماعية معينة ، كما يعنى الالتزام بـهذا النمـوذج قبولـه أو التمسك به ، أي ارتداء الملابس طبقاً لمعيار تضعه الجماعة ٠ وباستثناء كلمـة Style فإن جميع التعريفات التالية يمكـن اعتبارهـا نمـاذج معياريـة للملبـس Clothing Norms ٠

٢-الطراز Style

يقصد بهذا اللفظ الشكل المميز أو الخاص للملبس الذي يرتبط بصفـات أو ملامح معينة يمكن التعرف عليها وتميزه عن الأشكال الأخرى ٠ وبصفـة عامـة فإن تصميم الثوب وفقاً لطراز معين هو عمل يتعلق بتصميم الثوب أو تفصيله كما يرتبط هذا التصميم بخطوط الثوب أو شكله أو مقاسـاته ٠ وهكـذا فـإن هنـاك طرازات مختلفة من المعاطف [ فـي المجتمعـات الغربيـة] مثـل الريدينجـوت Redingote [٩] ، والبالمكـان Balmacan [١٠] والشسـترفيلد Chesterfield [١١] والترنش Trench [١٢] ، وطرازات مختلفة من القبعات كقبعـة بريتـون Breton Hat[١٣] ، وقبعة البولر Bowler [١٤] ، وقبعة الفيـدورا Fedora [١٥] ، وقبعـة الكلوش Cloche [١٦] ، كما أن هناك طرازات مختلفة من الأحذية كحذاء أكسـفورد Oxford [١٧] ، والصندل Sandals [١٨] ، وحذاء البامب Pumps [١٩] ، والبـوت Boots [٢٠] ، وحذاء البروج Brogues [٢١] ٠

٣-الموضة Mode

وهو تعبير إحصائي يمثل أكثر أشكال السـلوك الملبسـي شـيوعاً بيـن مجموعة معينة من الأشخاص ، أو بعبارة أخرى أكبر درجة من التكرار للطـراز ٠ فلو أننا لاحظنا سلوك مجموعة من السكان من حيث الملبس لأمكننا أن نحصـى

عدد المرات التي يُرتدى فيها كل شكل من أشكال الملابس المتنوعة ، ويمدنا هذا الإجراء الإحصائي بنوعين من المقاييس يتعلق أولهما بمجال التنوع في الملبس، بينما يشير الثاني إلى الطراز الأكثر تكراراً (أو الموضة) .

**٤-النماذج العامة Universals والبدائل Alternatives والأزياء الخاصة Specialties**

تعبر هذه المصطلحات عن مدى قابلية النموذج للاستخدام ، فالنموذج العام universal ينطبق بصفة عامة على كل فرد من أفراد المجتمع ، ومع ذلك فإن معظم المجتمعات تسمح بدرجة معينة من درجات التنوع والخروج عن النمط النموذجي ، فقد تكون سراويل ليفايز Levi's [٢٢] هي الموضة داخل الحرم الجامعي ولكن السراويل الفضفاضة المنتفخة التي تسمى Bell Bottoms أو Baggies أو سراويل Ivy – Leagues [٢٣] قد تكون أيضا بدائل Alternatives ، يعتبر كل منها نموذجاً للملبس Norm ولكنه لا يستبعد النموذج الآخر ، أما الأزياء الخاصة Specialties فهي نماذج تقتصر على جماعة فرعية معينة Sub-group ففي السبعينيات من القرن العشرين كانت التنورات القصيرة جداً Micro-mini Skirts هي الموضة للإناث الصغيرات التي تتراوح أعمارهن بين الثالثة عشرة والخامسة والعشرين ولكنها لم تكن النموذج لجميع الإناث .

**٥-الزي السائد Fashion**

يمثل هذا المصطلح الطراز السائد المقبول الذي يتمتع بالشعبية في أي فترة معينة ، وبهذا المعنى فإنه يعتبر مرادفاً لمصطلح الموضة ، ولكنه يتميز بخاصية إضافية هي طبيعته الدائرية ، أي صعود هذا الزي التدريجي وبلوغه الذروة ثم تراجعه بعد ذلك من حيث القبول الشعبي للطراز ، وفي طريق هذا الطراز إلى الشعبية فإنه لا يرتديه إلا عدد قليل نسبياً من الأشخاص الذين يستطيعون من الناحية المادية أن يكونوا مختلفين عن غيرهم ، ومع انتشار شعبيته يقفز المزيد من الأشخاص إلى هذه العربة الموسيقية (أي ينحازون إلى هذه الفئة من الناس التي تشير جميع الدلائل إلى أنها صاحبة الحظ الأوفر في

الفوز) حتى يتضاعف حجم من يرتدون الطراز أخيراً ويصل إلى ذروة القبول ولا يستطيع أحد من الناحية المادية أن يكون مختلفاً عنه ، ولكن ما إن يستطيع كل إنسان ارتداءه حتى تنطفئ جاذبيته ويكون مصيره المحتوم هو النسيان ،

## ٦-الزي التقليدي Classic

يدل هذا المصطلح على زي سائد Fashion يرتبط بوقت معين ويحظى بقبول عالمي إلى درجة أنه يتبلور تدريجياً في شكل نموذج تقليدي للملبس ، وتبقى مثل هذه الطرازات شائعة لوقت طويل جداً حتى أنها تبقى على خط الحدود بين الزي السائد Fashion والعُرف Custom ، ومع مرور السنوات أصبحت طرازات من قبيل " البلوزة " النسائية أو طاقم التنورة والسترة أو المعطف المصنوع من وبر الجمل ذو الدرزات على الحواف ونصف الحزام على الظهر والمسمى بولوكوت Polo coat تعرف بأنها من الملابس الكلاسيكية Classics ،

## ٧-أحدث الأزياء High Style

لا نجد هذا المصطلح (الذي اشتهر في صيغته الفرنسية Haute Couture إلا في المراحل الأولية من دورة الزي السائد Fashion ، ونظراً لجدة هذه الأزياء وارتفاع سعرها وابتكارها فإنه لا يرتديها إلا الأشخاص الذين يمتلكون صفات مبتكري الزي ، وهي تتميز بسحر التعالي على الآخرين بسبب الشعور بالتفرد ، وعندما تفقد هذه الأزياء مكانتها " كأحدث أزياء " ، وبسبب الانتشار السريع للنسخ المقلدة لهذه الأزياء فإن دورة حياتها تقصر كثيراً ، ومع ذلك فإنه يجب التأكد من الاحتمالات المتوقعة لانتشار " أحدث الأزياء" قبل أن يقوم المنتجون بإنتاجها إنتاجاً كمياً ، ولا تتحقق لجميع الأزياء التي يطلق عليها " أحدث الأزياء" أو High Style سعة الانتشار فبعضها يختفي وينساه الناس لابتعادها عن الأنماط التقليدية للملبس ، وبعضها يستمر في الاستخدام المحدود بسبب تكلفته العالية أو توفره بصورة تحول دون استمراره ،

### ٨-البدعة الوقتية Fad

يستخدم هذا المصطلح للإشارة إلى نوع مُصغَّر من الزي السائد Fashion، وهو في العادة أكثر تفاهة أو غرابة من الزي السائد Fashion الطبيعي أو المعتاد، وهو لا يصل غالباً إلا إلى عدد أقل من الأشخاص ، كما يكون في بعض الأحيان قاصراً على ثقافة فرعية ، وتتميز البدع الوقتية بانبثاقها المفاجئ من حيث شعبيتها وانتشارها لعدة أسابيع أو شهور ثم اختفائها من الوجود بنفس السرعة التي جاءت بها ، ومن هذه البدع الوقتية في الملبس أربطة الأحذية المتصالبة وأحذية التنس الملونة والكنزة الفضفاضة المزركشة التي يرتديها الرياضيون وعقود الخرز الطويلة والسترات الفضفاضة المخططة التي يرتديها لاعبو التنس والبلوزة ذات القبعة والسوار التعويذة ورقعة المرفق ، إلى ما لا نهاية ، وأحيانا تتركز البدعة الوقتية حول شخص معين أو جماعة معينة أو حدث معين ، فشعبية فرقة البيتلز Beetles تسببت في ظهور قمصان البيتلز وسترات البيتلز وقصة شعر البيتلز ، ونادراً ما نجد بدعاً وقتية Fads تتجاوز حياتها الانهيار السريع لتبقى وتصبح نوعاً من الزي السائد Fashion (كالأحذية ذات الإبزيم Buck Shoes واللآلي التي تلبس مع الكنزات) ولكن الغالبية العظمى لا تبقى أكثر من ستة أشهر ،

وباستثناء طراز الملبس Style فإن كل هذه المفهومات السابقة تحظى بدرجات متفاوتة من الالتزام بها تتوقف على مدى قبول الناس لها [٢٤] ،

### ٢-الوظائف :

وإذا كانت وظيفة الملبس تتركز أساساً في كونه وسيلة تكيف وتأقلم تحقق الانسجام بين الإنسان وبيئته الطبيعية ، وتعبر في الوقت ذاته عن المرتبة أو المكانة الاجتماعية للفرد فإن وظيفة الموضة ربما كانت تتمثل في القيمة التي ينقلها الزي إلى الفرد الذي يرتديه ، فالموضة تمد الفرد بالإحساس النفسي

وتجدد من اهتمامه بذاته وتقديره لها ، كما أنها تنتشله من الإحساس بالاكتئاب وتثرى تجربته الشخصية [٢٥] .

أما من وجهة النظر العلمية فإن الموضة تمثل ظاهرة فريدة تُسّهل القيام بتحليل اجتماعي لا يمكن تحقيقه عند التعامل مع بعض الظواهر الأقل مادية في السلوك البشرى فالموضات يمكن تحديد تاريخها بدقة إلى حد ما وطول التنورة وأبعادها الأخرى يمكن قياسها وعدد الأشخاص الذين يرتدون الموضة يمكن حصرهم وبداية ونهاية كل دورة من دورات الموضة يمكن تقريرها عادة بدقة نسبية [٢٦] .

ويقول يانج Young في كتابه "علم النفس الاجتماعي" الذي نشر عام ١٩٥٦ في نيويورك " إن الموضة كشكل للسلوك تتعلق بالأشياء الشائعة في المجتمع كالملابس والأثاث والمساكن وطائفة هائلة من المظاهر الاجتماعية " ، في حين يؤكد بونر H. Bonnor أن مصطلح الموضة لا ينطبق على الأزياء والملابس فحسب ولكنه يستخدم أيضاً في الإشارة إلى أي نشاط متكرر يشبع اهتمامات عدد كبير من الناس، ويُعد روبرت بيرستيد R. Bierstedt من بين أولئك الذين يتبنون منظوراً خاصاً في دراسة الموضة ، فالفرد في رأيه يسعى إلى إيجاد نوع من التوازن بين مطالبه الشخصية والمطالب المجتمعية حيث يكون هناك ميل لدى الناس أن يكونوا في موقف مشابه لرفاقهم وأقرانهم ، في نفس الوقت الذي يهتمون فيه بوجود فوارق بينهم ، وربما كان السبب الأساسي في امتثالهم للمعايير أنهم يحققون نوعاً من التوحد مع جماعاتهم ، لكنهم في الوقت ذاته يرغبون في التعبير عن فرديتهم المتميزة ، والموضة هي وسيلة مفيدة في الوفاء بهذه الرغبات المتعارضة .

ولقد كانت تعليقات زيمل G. Simmel على الموضة كواحدة من عمليات التباين الاجتماعي دليلاً على اعتقاده أنها نوع من أنواع المحاكاة أو التقليد ويقول : " إن الموضة شكل من المحاكاة وعامل من عوامل التباين الاجتماعي ،

فهي توحد بين الذين ينتمون إلى طبقة اجتماعية معينة كما أنها تفصلهم عن غيرهم من أعضاء الطبقات الأخرى " [٢٧] .

وربما كانت أول إشارة في التراث العربي المكتوب إلى الفرق بين الملبس باعتباره حاجة أساسية ثابتة من حاجات الإنسان ، والموضة كظاهرة ثقافية متغيرة (ذات دلالة اجتماعية) ، هي ما ورد في القرآن الكريم في قول الحق سبحانه وتعالى " يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون " [٢٨] . وقد ذكر إبن كثير في تفسيره لهذه الآية أن الله تبارك وتعالى " يمتن على عباده بما جعل لهم من اللباس والرياش فاللباس المذكور ها هنا لستر العورات - وهي السوآت - والرياش والريش هو ما يتجمل به ظاهراً ، فالأول من الضروريات ، والريش من التكملات والزيادات " [٢٩] .

وعلى حين أشار إيكه هولتكرانس في " قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور" إلى الموضة باعتبارها السلوك الممثل للأفكار السلوكية السائدة في مجتمع الطبقة العليا [٣٠]- وهو ما يعتبر تأكيداً غير مباشر لما قرره القرآن الكريم من قبل من " كمالية " الرياش أو الموضة - ذهب زيمل إلى أن الرابطة بين الموضة والجماعات الاجتماعية تتمثل في أن الموضة تنتمي لجزء واحد فقط من أي جماعة اجتماعية ، بينما يمكن لباقي الجماعات أن تطمح إليه فحسب [٣١] ، مؤكداً هو الآخر أن الموضة (والتي ترتبط عادة بتنوع طرز الزي) إنما هي من الكماليات خلافاً للملابس التي تعتبر من الضرورات في حياة الإنسان سواء كوسيلة تكيف أو كرمز لإثبات مكانة اجتماعية معينة .

أما العالم الروسي بيتر بوجاتيريف (وهو المتخصص في دراسة العلاقات كعلم Semiology ) فقد مضى أبعد من ذلك حين قام في سنة ١٩٣٧ بتحليل الزي القومي لموراڤيا مستخدماً منهجاً وظيفياً ، وخلص من دراسته إلى اعتبار

الملبس نسقاً من الإشارات تؤدي وظائف محددة ، بينما رأى في الموضة النقيض الفعلي للباس القومي لسببين هما :

١-ان اللباس القومي يبقى ثابتاً لا يتغير بينما تتغير الموضة بسرعة .

٢- ان اللباس القومي يخضع لرقابة الجماعة بينما تعتمد الموضة على أفضليات من يخلقونها [٣٢] .

ونخلص من تفرقة بوجاتيريف بين الملبس والموضة والتي استند فيها إلى سرعة تغير الموضة في مقابل ثبات الملبس القومي إنما تنطوي على اعتبار الموضة مظهراً من المظاهر التي يتجلى فيها التغير الثقافي ، ويؤيد هذا الرأي ما ذهب إليه بارتون شفارتس Barton, Schwartz وروبرت إيوالد Robert Ewald من أن الرغبة في التغير لا تتضح في شئ مثلما تتضح في الموضة أي في التغيرات الدائرية قصيرة الأجل والتي تحدث بشكل دوري في سلسلة من المنتجات الثقافية كالتغيرات الموسمية في الملبس والتغيرات الثانوية في طراز السيارات والتغيرات الدورية في طرق تصفيف الشعر واستعمال أدوات التجميل ، خاصة وأن المكانة المرموقة والمرتبة الاجتماعية العالية هما من الجوائز التي يتلقاها من يتحركون في عالم الطرازات الراقية أو عالم الموضة [٣٣] .

## ٣-المدخل التاريخي للدراسة :

من المؤكد أن فكرة الزي السائد Fashion قد وجدت قبل ما اصطلح على تسميته بالعصر " الحديث" ، ورغم أن وجودها قد اقتصر على دوائر النخبة إلا أنها قد تعايشت مع ملبس الجماعات الاجتماعية المختلفة والزي السائد فيها [٣٤]، تشهد بذلك شواهد نجدها في نصوص متفرقة لأدباء ومفكرين وفلاسفة عاشوا قبل هذا العصر " الحديث" ، من ذلك مثلاً قول لورد تشسترفيلد Chesterfield في رسائله إلى ابنه سنة ١٧٥٠ : " إذا لم تكن ترتدي الزي السائد فأنت لا تمثل شيئاً" ؛ وقول توماس فولر Thomas Fuller في سنة ١٧٣٢ : " إن الزي السائد حالياً هو زي أنيق دائماً " ؛ وقول لا روشفوكو La Rochefoucaud في سنة

١٦٦٥ : " إن الجزء الأكبر من الجنس البشري يحكمون على الناس فقط بمدى اتباعهم للزي السائد أو بما لديهم من ثروة " ؛ بل إننا نجد حكمة لاتينية قديمة تقول : " إن الزي السائد أقوى من أي طاغية آخر" (٣٥) .

ورغم محاولة النقاد الثقافيين حديثاً انتزاع مفهوم الزي السائد من تراثه الأوروبي الذي استأثر به ، وذلك بوضع تعريف جديد له بأنه حركة دينامية بين الجسم والموطن الاجتماعي اشتركت فيها جميع الشعوب ، فإن هذه الاتجاهات لا ينبغي أن تحجب عنا الحقيقة التاريخية القائلة بأن اقتران الزي السائد بالحداثة الأوروبية هو مفهوم ظهر منذ قرون عديدة وآمن به كثير من الناس خارج العالم الغربي (٣٦) .

وفي الأربعين سنة الماضية أصبح الزي السائد وسيلة اتصال جماهيرية تماماً ، وأدخل تغيرات عميقة على طبيعة علاقته بالزمن والعالم والقيم والايديولوجيات (٣٧) وإذا كانت مقدمات ذلك البعد الجماهيري - الفعلي أو المحتمل- قد ظهرت فعلاً في نهاية القرن التاسع عشر فإنها لم تتأكد إلا في النصف الثاني من القرن العشرين (٣٨) .

ولقد ارتبط تطور النظرة إلى الملبس والتغيرات التي تطرأ عليه على اختلاف مسمياتها بتطور وضع المرأة في المجتمع واقتحامها مجالات ظلت لزمن طويل حكراً على الرجل ، فمع تأسيس الجامعات في الولايات المتحدة الأمريكية وفتح أبواب التعليم العالي لبنات الأسر الأمريكية وأبنائها على السواء لم تعد المرأة تقنع بقبول حياة التبعية ، وبقبول المرأة للعمل في الوظائف المكتبية والمهنية دخلت في منافسة مع الرجال كانت جديدة واقتصادية بحتة ، وفي الوقت نفسه شهد المجتمع انطلاق اختراع جديد هو الدراجة التي ترتب على التحمس لركوبها باعتبارها رياضة نسائية ظهور مشاكل بين الداعين إلى المحافظة على الأخلاق تمثلت في الإجابة على هذا السؤال : أي الأمرين أسوأ ، رفع التنورة بحيث تكشف الكاحل وأسفل الساق أو تغطية الساقين بالبلومرز

Bloomers وهو سروال فضفاض مزموم عند الركبتين كانت النساء يلبسنه عند ممارسة الألعاب الرياضية ، وكسب السروال الفضفاض المعركة وكان إرهاصاً بتطور الملبس الوظيفي في مجال الألعاب الرياضية الأخرى . لقد هيأت الملابس التي تعرى الجسم والتي اقترنت بممارسة الألعاب الرياضية المجتمع كله لمجموعة جديدة من القيم تتجه إلى تعرية جسم الأنثى وتسهم بدرجة كبيرة في تحرير المرأة الحديثة من السلوك المفروض عليها تقليدياً من الأجيال السابقة(٣٩).

ولقد كان من شأن مفهوم الزي السائد وما ترتب عليه من تعريض جسم الإنسان لعمليات تحول لا نهائية أن قلب التوازن وقضى على الوظيفية الصارمة للملابس التقليدية ، بل وعكس وظيفة الأقمشة في تغطية الجسم بأن جعلها شفافة، وحوّل الجسم إلى عملية عقلية تكون جزءاً لا يتجزأ منه ويصبح جسماً معرضاً للتحولات والانفتاحات الغريبة على العالم ، وجسماً يشعر بكل ما يشعر به العالم ويتذوق كل ما يتذوقه ببساطة بالغة إذا ترك نفسه ينفتح عليه (٤٠) .

وعندما نتحدث عن الزي السائد فإن ذلك يتضمن حتماً الإشارة إلى جسم الإنسان أو بالأحرى الأجسام التي يغطيها الزي السائد ، فالجسم المغطي هو موضوع في طور الصنع ، أو موضوع يجرى إنشاؤه عن طريق هيئته وطريقة ظهوره . وبهذا المعنى فإن الجسم يكون أداء وعملية إنشاء مستمرة للهوية المادية كما يكون بمثابة البعد الدنيوي للذاتية (٤١) .

وإذا كان الزي السائد هو النظام الذي تتقرر فيه قواعد الملبس ، فقد كان أول من وصف هذه القواعد من وجهة النظر السوسيولوجية هو جورج زيمل George Simmel في سنة ١٨٩٥ حيث عرّف الخصائص الأساسية للزي السائد في إطار ثلاثة عناصر متتابعة هي البعد الزوالي ، وتأكيد الجماعة الاجتماعية لذاتها ، والعلاقة الجدلية بين الفرد والمجتمع .

ويتجلى البعد الزوالي للزي السائد في حقيقة أنه بمجرد أن يبدأ كل فرد في فعل ما فعلته في أول الأمر قلة قليلة من الأفراد لا يصبح الزي السائد زياً سائداً ، وأما تأكيد الجماعة الاجتماعية لذاتها فيتمثل في أن الزي السائد ينتمي لجزء واحد فقط من أي جماعة اجتماعية ، بينما لا تستطيع باقي الجماعة إلا أن تطمح إليه فحسب .

وأما العلاقة الجدلية بين الفرد والمجتمع فيرى زيمل أن الدافع الرئيسي وراء الزي السائد إنما يكمن في التوتر الذي يتميز به الإنسان بين المحاكاة والإبداع . فالمحاكاة تتعلق بالطبيعة الاجتماعية للثقافة والسلوك ، بينما يعنى الإبداع بإظهار فردية الفرد ، فكلما كانت أصول الزي السائد أكثر غرابة ، كان تماسك المجموعة أقوى عند اتخاذها لهذا الزي [٤٢] .

## ٤-الدراسات السابقة وأسباب اختيار الموضوع :

لقد شغلت فكرة الملبس وما يتصل بها من أفكار ومفهومات حيزاً كبيراً من اهتمام العلماء والباحثين في العالم الغربي منذ القرن التاسع عشر . وانعكس هذا الاهتمام في ذلك الكم الكبير من المؤلفات التي تناولت الملبس (والموضة، باعتبارها تغيراً يطرأ على الملبس) والتي اختلف تناولها للموضوع باختلاف المنظور وزاوية الاهتمام .

ورغم ذلك فإن موضوع الموضة لم يلق من عناية القائمين على المؤسسات العلمية والتعليمية والأكاديمية ما يستحق من الاهتمام ، حيث لم تخصص الجامعات والمعاهد العليا مساحة كافية لدراسة تاريخ الموضة أو التغيرات التي تطرأ على شكل الملبس ، فكان موضوع الموضة في حالة حرب من أجل الاعتراف به كمجال دراسة حقيقية أو كمجال يصلح للدراسة [٤٣] . وربما كانت كلمات فاليري ستيل Valerie Steele رئيسة تحرير مجلة Fashion Theory في العدد الأول من المجلة الصادر في مارس ١٩٩٧ ، تعبر أصدق تعبير عن القيمة العلمية لمفهوم الزي السائد Fashion "... لم تكن الصورة

جميلة ، فقد كان ينظر إلى الموضة باعتبارها مادة جنسية بورجوازية تافهة (لا مادة فكرية) ... أما اليوم فإن الموضة لم تعد كلمة محظورة في الدوائر الفكرية ، وفعلاً فقد بدأ العلماء في كل التخصصات يستكشفون العلاقة بين الجسم والملبس والهوية الثقافية ، وهذه منطقة بحثية مثيرة تشهد تطوراً سريعاً " (٤٤).

ومما يؤيد هذا الرأي وصف أ.ل. كروبر A.L.Krober للموضة بأنها نوع من "اللهو أو اللعب الثقافي" وربطه بينها وبين زيادة الثروة القومية ووقت الفراغ(٤٥). إلا أن هذا النقد لموقف المؤسسات الأكاديمية لا ينبغي أن يكون سبباً في تجاهل بعض الآراء الجادة التي ذهب أصحابها إلى أن إخضاع المصنوعات المرتبطة بالأزياء للتحليل الشكلي يمكن أن يكشف لنا عن دلائل تشير إلى وجود مواقف وأنساق معتقدات وافتراضات يمكن أن تلقي ضوءاً على الثقافة (٤٦) .

كما أن الدراسات العلمية الحديثة المهمة وتزايد الاهتمام بالملابس بين العلوم الأخرى إنما يثبت أنه أصبح من واجب مؤرخي الأزياء التقليديين أن يستخدموا مناهج تتسم بقدر أكبر من التحليل والنظرية والنقد في أبحاثهم (٤٧) .

ومن هنا فإن هذا البحث يعتبر أول محاولة في المكتبة العربية بقدر ما نعرف - لتناول هذه الظاهرة الثقافية التي بدأت الجامعات في أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية وكندا في دراستها بصورة أكاديمية علمية منظمة في النصف الثاني من القرن العشرين . وكان الدافع الأكبر إلى الخوض في هذه المنطقة الشائكة من مناطق البحث هو اقتناع الباحث بأهمية دراسة مفهوم الموضة في المجتمع المصري دراسة أنثروبولوجية تعتمد على عدد من المفهومات النظرية ، ثم اختبار هذه المفهومات ميدانياً بهدف تحليل عناصر الثقافة المادية ذات الصلة بملبس الإنسان في الريف والحضر ، وتطور هذا الملبس من خلال تغير شكل الزي السائد في المجتمع ، واستخلاص المواقف والمعتقدات التي من شأنها إلقاء الضوء على الثقافة المصرية أثناء فترة البحث.

## ٥-منهج البحث :

تعتبر دراسة الموضة من الدراسات الحديثة التي تتطلب - بحكم طبيعتها وتعدد الزوايا التي يمكن بحث الموضوع منها - منهجاً خاصاً يجمع بين بعض الأساليب المنهجية المستخدمة في علوم مختلفة وهو ما دعت إليه ألكسندرا بالمر Alexandra Palmer في مقالة قيمة لها نشرت في مجلة Fashion Theory ، حيث تساءلت عن السبب في عزوف مؤرخي الموضة Fashion Historians عن إخضاع المصنوعات الخاصة بالأزياء للتحليل الشكلي ، وأرجعت السبب في ذلك إلى أن مثل هذا التحليل يتطلب تجاوز الشئ موضوع الدراسة والدخول في منطقة الاستقصاء عن خلفية هذا الشئ ووظيفته في الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية ، وهو ما يتطلب - بدوره - استخدام منهجية العلوم المتعددة التي يبدو أن كثيراً من مؤرخي الملبس ليسوا على استعداد للأخذ بها ، وتدافع مؤرخة الموضة باتريشيا كانينجهام Patricia Cunningham عن هذا المدخل وتدعو من يدرسون القرن العشرين إلى " محاولة اكتشاف ما يعنيه الملبس لمن يلبسونه ولمن ينظرون إليه" كما تقترح أن يهتم الباحثون بالمجالات الدراسية الأخرى كتاريخ الفن ،وعلم الاجتماع ،وعلم النفس ، وعلم الاقتصاد ، ودراسات المرأة ، والدراسات الأمريكية ، ودراسات الثقافات الشعبية، وغير ذلك [٤٨] .

ومن هذا المنطلق فإن البحث يقوم على عدد من الآليات المنهجية هي على وجه التحديد :

أ- تحديد إطار للعمل يتفق مع أهداف البحث .

ب- طرح عدد من التساؤلات النظرية التي ترسم الإجابة عليها في مجموعها صورة عامة للهوية الثقافية المصرية من وجهة النظر الملبسية .

جـ- زيارة بعض القرى والمدن المصرية بغرض :

١-رصد واقع الملبس في القرية والمدينة (سواء كان تقليدياً أو متابعاً لأحدث اتجاهات الموضة).

٢-طرح تساؤلات البحث على عدد كبير من الأفراد من الجنسين ومن فئات عمرية مختلفة مع التركيز على الشباب باعتبارها الفئة الأكثر تأثراً بالموضة .

د- وصف وتحليل المعلومات التي تم جمعها أثناء البحث.

**أ-إطار العمل :**

خصصت الباحثة الأمريكية مارلين هورن Marilyn J. Horn الفصل السادس من الجزء الأول من كتابها الممتع The Second Skin: An Interdisciplinary Study of Clothing ، للحديث عن الأسباب الكامنة وراء سرعة تغير الموضة ، وأجملت هذه الأسباب في النقاط الآتية : (١) النظام الديمقراطي المفتوح ، (٢) زيادة الثروة وانتشارها ، (٣) زيادة وقت الفراغ ، (٤) تزايد تأثير الألعاب الرياضية ، (٥) انتشار التعليم ، (٦) زيادة الاحتكاك الثقافي ،(٧) زيادة الاهتمام بالشباب ، (٨) الفوران الاجتماعي، (٩) تحسن أوضاع المرأة ، (١٠) التقدم التكنولوجي[٤٩].

ويرى الباحث أن كل سبب من هذه الأسباب يصلح لأن يكون في حد ذاته إطاراً عاماً لدراسة موضوع البحث إلا أنه نظراً لاستحالة الجمع - من الناحية العملية - بين أكثر من إطار من هذه الأطر لما قد يترتب على ذلك من تشعب مسار البحث وتعقده من ناحية ، وخروج عن التساؤلات التي يطرحها البحث من ناحية أخرى ، فقد تم اختيار الإطار الذي رأى الباحث أنه يتفق أكثر من غيره مع مقتضيات البحث وأهدافه ، وهو الاحتكاك الثقافي .

وفي ظل ثورة الاتصالات التي بدأ العالم يشهدها منذ أواخر الألفية الثانية ومع مطلع الألفية الثالثة ، وما اقترن بها من مفهومات جديدة كالمعلوماتية وشبكة الحاسب الآلي الدولية (الإنترنت) والعولمة ، وانتقال الإرسال التليفزيوني

عن طريق الأقمار الصناعية عبر ما أصبح يعرف بالقنوات الفضائية ، يتخذ الاحتكاك الثقافي بُعداً خطيراً ، فالسرعة الفائقة التي تنتقل بها المعلومات بين المناطق المتباعدة جغرافياً قد دمرت تقريباً حاجز المكان والزمان وأصبح بمقدور أي جماعة عرقية أو ثقافية الإطلاع على ما عند أي جماعة أخرى ، وأصبح الاحتكاك بين الجماعات البشرية المختلفة - وتبادل التأثير والتأثر فيما بينها - أمراً واقعاً لا يحتاج إلى انتقال الرحالة والمستكشفين والجغرافيين لمسافات بعيدة، أو الاعتماد على روايات الإخباريين أو حتى التجاور المكاني بين الجماعات المختلفة .

ولا شك أن عناصر الثقافة المادية هي أكثر العناصر تأثراً بالاحتكاك الثقافي ، وأسرعها استجابة له ، ولا شك أيضاً أن التغير الذي يطرأ على هذه العناصر سرعان ما يتغلغل في منظومة القيم السائدة ويحدث تأثيره فيها بالتعديل أو التبديل أو التكيف مع الأوضاع السائدة . والملبس باعتباره واحداً من أهم عناصر الثقافة المادية في جميع المجتمعات البشرية على اختلاف أصولها وانتماءاتها الجغرافية والتاريخية ، هو العنصر الذي يتجلى فيه بكل وضوح أثر الاحتكاك الثقافي بين الثقافة المحلية والثقافة الأجنبية من جهة ، وبين الثقافة الأصلية والثقافة الفرعية من جهة أخرى . وما انتقال شكل معين من أشكال الملبس (من حيث الاستعمال أو المادة أو اللون ..الخ) من منطقة جغرافية معينة إلى منطقة أخرى إلا تجسيداً للاحتكاك الثقافي بين الجماعات العرقية والثقافية المختلفة .

**ب-تساؤلات البحث :**

استهدفت هذه التساؤلات رصد موقف الأشخاص الذين أجريت معهم المقابلات الشخصية من قضايا معينة تشكل في مجموعها عنصراً أساسياً من العناصر التي تتألف منها الهوية الثقافية للشخص ، وبالتالي الهوية الثقافية للجماعة . وهذه التساؤلات هي :

١-ما نوع العلاقة بين ملبس الشخص والزي التقليدي الشائع في المجتمع المحيط به ؟ ٠

٢-إلى أي مدى يحرص الشخص على متابعة الموضة وما أسباب ذلك الحرص (إن وجد) ؟ ٠

٣-ما هي الضوابط التي تحدد موقف الفرد من متابعة أحدث طرازات الملابس (ضوابط دينية، ضوابط اجتماعية ، ضوابط اقتصادية ، ضوابط أخرى)؟

٤-ما هو الأثر النفسي الذي تحدثه في الشخص متابعته للموضة ؟

٥-هل هناك فرق بين الملابس التي يرتديها الشخص داخل المنزل ،والملابس التي يرتديها خارج المنزل ؟ وما هو الأثر النفسي لكل من النوعين؟

٦-ما هو الأثر النفسي لاستخدام ما يطلق عليه مكملات الملبس كالنظارات الشمسية ، وأجهزة التسجيل المحمولة ، والتليفون المحمول؟ ٠

٧-ما هو شعور الشخص - من حيث الانتماء أو الاغتراب - تجاه جماعة ترتدي نفس الملبس الذي يرتديه ، وجماعة ترتدي ملبساً مخالفاً؟ ٠

٨-إلى أي مدى تتعارض أحدث طرازات الملبس مع منظومة القيم السائدة في المجتمع وما مغزى هذا التعارض ؟

**جـ-الزيارات الميدانية والمقابلات الشخصية :**

**أولاً : الزيارات الميدانية :**

لوحظ في الزيارات التي جرت لقرى مليج وقرية طنبشا ، وقرية شنشور، بمحافظة المنوفية أن الخصائص العامة التي يتميز بها ملبس السكان رجالاً ونساء هي الاحتشام ومراعاة القواعد الدينية والاهتمام أيضاً بمراعاة بعض الأعراف الملبسية التي تجعل من الملبس الريفي التقليدي تراثاً متوارثاً عن الآباء والأجداد ٠ وتتجلى هذه الخصائص في الملابس الريفية التقليدية للرجال في ارتداء الجلباب البلدي والصديري والتلفيعة أو الشال والطاقية ٠ وتتعدد أنواع الجلباب فنجد الجلباب ذا الكم الواسع ،والجلباب ذا الكم الضيق ، ونجد الجلباب ذا

الياقة والجلباب الذي لا ياقة له ، كما يكون الجلباب المصنوع من الكشمير مفتوحاً من تحت الإبطين لتجنب جرحهما عند جفاف العرق ، وهناك أيضا العباءة المفتوحة تماماً من الأمام ، التي تكون قصيرة الأكمام .

والجلباب بتغطيته لجميع أجزاء الجسم يحقق هدف الاحتشام من ناحية ، ويخدم غرضاً دينياً من ناحية أخرى . فأما الاحتشام فيرتبط بفكرة الحياء التي تتميز بها المجتمعات الريفية ، وأما الجانب الديني الذي يرتبط بارتداء الجلباب فيرجع إلى مفهوم العورة في الدين الإسلامي ، حيث أن ستر العورة يعتبر من شروط الصلاة ، وهو شرط يتحقق في حالة ارتداء الجلباب الذي يضمن عدم كشف أي جزء من الجسم أثناء الصلاة (الأمر الذي يمكن أن يحدث في حالة ارتداء القميص والبنطلون إذ ينكشف جزء من الظهر فتبطل الصلاة) . كما يرتبط الملبس الريفي للرجال بالمناسبات الاجتماعية المختلفة . ففي المناسبات الهامة يحرص الرجال على ارتداء الجلباب (أو الجلابية كما يطلق عليها في العامية) المصنوعة من الكشمير والعباءة السوداء التي تصنع عادة من القماش السميك غالي الثمن .

وإلى جانب هذه الوظائف الثقافية للملبس في الريف هناك الوظيفة الإيكولوجية التي تمثل التفاعل بين الإنسان وبيئته . فالجلباب يعتبر أكثر ملاءمة للمجتمع الريفي نظراً لطبيعة العمل في الحقول والأجواء المشمسة حيث يساعد الجلباب على تهوية الجسم وعدم الشعور بالضيق ، فضلاً عن سهولة ارتدائه حيث يميل أهل الريف إلي السهولة واليسر في حياتهم .

ولا تختلف الملابس التقليدية للمرأة الريفية ، من حيث وظيفتها الثقافية والإيكولوجية عن ملابس الرجل ، بل يطلق على ثوب الرجل وثوب المرأة جميعاً لفظ "جلباب" الذي حرّفته العامية المصرية إلى "جلابية" (٥٠) أو "جلبية " (٥١)، فترتدي المرأة الريفية الجلباب أو العباءة والطرحة ، وتكون ملابس المرأة الريفية عادة واسعة وطويلة تتميز بالاحتشام ويغلب عليها اللون الأسود ، بل أن

الجلباب الأسود يعتبر من اللوازم الضرورية للمرأة الريفية ، ويجب أن ترتديه أثناء تجولها في القرية أو عند زيارتها لأي شخص في القرية أو في العزاء ، بل إنها ترتدي " الجلابية " السوداء في الأفراح والأعياد أيضا ، وبصفة عامة فإن المرأة التي مات زوجها أو التي تجاوزت سن الأربعين عادة ما ترتدي الملابس الداكنة مع الإيشارب الأسود .

وفي مقابل هذه الأعراف والقيم التي تنطوي على قدر غير يسير من الصرامة في التعامل مع الملبس في الريف فإن المجتمع الحضري لا يكاد يعرف زياً معيناً يتمتع بطابع الانتشار الذي يجعل منه عنصراً محدداً من عناصر الثقافة المادية للمجتمع . ففي المدينة المصرية كالقاهرة والاسكندرية وشبين الكوم تختلط الأزياء الريفية التقليدية (نتيجة للهجرة من الريف إلى الحضر أو لوجود أعداد كبيرة من أبناء الريف في المدينة للتجارة أو التزاور أو قضاء المصالح بالدواوين الحكومية) بالأزياء الأوروبية التي دخلت مصر منذ مطلع القرن التاسع عشر مع وفود الثقافات الأوروبية في صورة غزوات عسكرية كالحملة الفرنسية، أو احتلال عسكري كالاحتلال البريطاني ، فضلاً عن تأثير الاحتكاك الثقافي الناجم عن إرسال عدد كبير من المصريين لاستكمال تعليمهم في الدول الأوروبية حيث عادوا محملين بسمات عناصر الثقافة الأوروبية التي بدأت تغزو المجتمع المصري في المدن بصفة خاصة .

وفي مقابل الاحتشام الذي نلمسه في الملابس في المجتمع الريفي نلحظ تحللاً من هذا الاحتشام أو عدم الالتزام بالقواعد الدينية والأعراف الاجتماعية التي سادت في مصر قبل حدوث الاحتكاك الثقافي بالمجتمعات الأوروبية على النحو الذي سبق ذكره. فعلى حين تتميز ملابس أبناء الريف في المناسبات الهامة كحفلات الزفاف وطقوس العزاء بالوقار والاحتشام نجد أن المرأة في المجتمع الحضري مثلاً تميل إلي ارتداء ملابس تكشف عن مساحات كبيرة من جسدها في المناسبات الاحتفالية الحضرية كحفلات الزفاف أو حفلات الاستقبال أو

أعياد الميلاد ، كما تعمد المرأة إلى تعرية مساحات أكبر من جسدها على شـــاطئ البحر في المدن التي تشتهر بمصايفها أو في النوادي الرياضية التي توجد بـــها حمامات السباحة ٠

وعلى حين يصعب تصنيف المجتمع الحضري إلى فئـــات محـــددة حســـب الملبس (اللهم إلا إذا اكتفينا بتصنيف عام جداً يقسم مجتمع المدينة إلى فئتيـــن ، فئة تأخذ بأسباب الموضة وتحرص على متابعتها ،وفئة لا تهتم بالموضة كثـيراً)، فإنه يمكن تقسيم المجتمع الريفي إلى فئات ملبسية حســـب العمـــر ٠ فـــالملابس الريفية التقليدية المذكورة من قبل تنتشر بين الأفراد الذين تجاوزوا سن الثلاثيـــن أما فئة الشباب الذين يتلقون تعليماً عالياً أو متوسطاً فيغلب على ملابسهم طـــابع التحضر نتيجة للاحتكاك الثقافي الذي يتعرضون له من خلال :

١-احتكاكهم بأبناء المدن التي يتلقون تعليمهم فيها (زملاء الدراسة) ٠

٢-احتكاكهم بأهالي المدن التي يعملون بها (لمن أتم تعليمه) ٠

٣-مشاهدتهم للتليفزيون الذي لا يخلو منه منزل ٠

٤-اطلاعهم على الصحف والمجلات ووسائل الإعلام الأخرى ٠

وهناك أخيراً فئة كبار الموظفين في المجتمع الريفي كالقضـــاة والأطبـــاء وأساتذة الجامعات وهؤلاء يرتدون البذلة ( الـــزي الرســـمي الحضـــري لرجـــال الأعمال وأصحاب المناصب العليا ) في المدينة ولكنهم ما إن يعودوا إلى موطنـــهم الأصلي بالقرية حتى يتخلصوا من الملبس الحضـــري ويـــهرعوا إلـــى الجلبـــاب القروي الذي يجدون فيه الراحة والتحرر من القيود التي تفرضها عليهم طبيعـــة عملهم ٠

**ثانياً : المقابلات الشخصية :**

**لم تكن التساؤلات التي طرحت على الأفراد الذين أجريت معهم المقـــابلات الشخصية تهدف إلى الحصول على إجابات نمطية يجرى تبويبها وتصنيفها فـــي جداول وخرائط بيانية جامدة بقدر ما كانت محاولة للتغلغل في النفـــس البشـــرية**

والتعرف على الدوافع الخفية التي تشد الإنسان إلى ماضيه فيتشبث بتقاليد وأعراف استقرت في وجدانه لسنوات طوال ، أو تدفعه إلى الأمام دفعاً فينتزع نفسه من قيود التقاليد وينطلق إلى الأمام ليصنع مستقبلاً جديداً يواجه تحدياته بهوية جديدة.

ولم يكن من حق الباحث - وبمقتضى الأمانة العلمية - أن يستبق الأحداث فيتوقع غلبة دافع من هذه الدوافع على دافع آخر أو دوافع أخرى ، أو ينتصر لهذا الدافع أو ذاك ، بل كان من واجبه المحافظة على حياديته إزاء الإجابات التي كانت تصله على تساؤلاته ، والتزام الموضوعية الكاملة وهو يستخلص من هذه الإجابات السمات المميزة لهوية ثقافية على مفترق الطرق بين الثبات والتغير ، أو بين التقليد والتجديد ، أو بين التراث والمعاصرة ، أو بعبارة أخرى بين محافظة الإنسان على الملبس التقليدي في جماعته العرقية أو الثقافية ، واتخاذه لأحدث الأزياء التي تأتي بها الموضة ، تلك الساحرة الغامضة التي تشير بعصاها السحرية فيتحول القبح إلى جمال أو الجمال إلى قبح ، وهي في الحقيقة لا تغير من شكل ولون وخامة ملابس الإنسان بقدر ما تغير من معنى هذه الملابس ووظيفتها ونظرتنا إليها .

لذلك فقد اتخذ البحث الميداني هنا شكل المقابلات المفتوحة غير المقننة لعدد من الأفراد روعي أن يشمل مختلف الفئات العمرية من الذكور والإناث في المجتمعين الريفي والحضري حيث تتيح مثل هذه المقابلات تحقيق الهدفين اللذين سبقت الإشارة إليهما وهما رصد الواقع الملبسى كما هو وطرح تساؤلات البحث على هؤلاء الأفراد بطريقة تتسم بالمرونة وتحقق للباحث حرية التصرف عند توجيه الأسئلة وفق استجابة المبحوث وهذا نوع من المقابلات يستخدم بصفة أساسية في البحوث الأنثروبولوجية (٥٢) .

ولقد أمكن من خلال هذه المقابلات تتبع مدى مسايرة الأفراد لأحدث اتجاهات الموضة بالمجتمعين الريفي والحضري وما يرتبط بهذه المتابعة أو

المسايرة من جوانب سلوكية ونفسية واجتماعية . وفيما يلي نعرض لما أسفرت عنه هذه المقابلات بالوصف والتحليل .

## أولاً : الجوانب السلوكية المرتبطة بالموضة في المجتمعين الريفي والحضري.

أمكن من خلال إجابات الأشخاص الذين شملتهم المقابلات الشخصية على الأسئلة الثلاث الأولى والخاصة بالعلاقة بين ملبس الشخص والملبس الشائع في الجماعة المحيطة به ، ومدى حرصه على متابعة الموضة ، والضوابط التي تحدد موقفه منها رصد بعض المواقف السلوكية المرتبطة بالموضة في المجتمعين الريفي والحضري ، والتي تتمثل فيما يلي :

١ -يشعر أبناء المجتمع الريفي من فئة الشباب - ذكوراً وإناثاً - بوجود اختلاف بين ما يلبسون وبين الزي الريفي التقليدي الذي يرتديه جيل الآباء والأمهات . وتتميز متابعتهم للموضة بالوعي بهذا الاختلاف والاستهانة به في نفس الوقت ، الأمر الذي ينعكس في حرص هذه الفئة على متابعة أحدث الأزياء - تشبهاً بأبناء المجتمع الحضري - وذلك في ظل مجموعة من الضوابط التي تحدد قدرة الفرد على متابعة وتقليد هذه الأزياء ، أهمها مجموعة القيم الدينية ، حيث لا تزال للعامل الديني سطوة في المجتمع الريفي التقليدي ، فيلاحظ مثلاً أن هناك من الشباب من يوافق على متابعة الموضة بشرط عدم تعارضها مع منظومة القيم السائدة في المجتمع وبالذات القيم الدينية . أما فئة كبار السن ، وتحديداً جيل الآباء والأمهات - وهو ما ينسحب تلقائياً على جيل الأجداد والجدات - فتتمسك بملبسها التقليدي ، وترجع هذا التمسك إلى الأسباب الثقافية أو الإيكولوجية التي سبقت الإشارة إليها ، وترى في مسايرة الموضة فساداً أخلاقياً أو انحرافاً عن المعايير الأخلاقية التي " يجب " الالتزام بها في الملبس والسلوك . فالضوابط الدينية والأخلاقية لها تأثيرها الواضح في رفض فئة كبار السن لمسايرة الموضة ومتابعة أحدث الأزياء التي تنال في رأيهم من وقار الفرد واحترامه .

أما في المجتمع الحضري فإن عامل السن ، أو الاختلاف بين الأجيال ، لا يمثل عنصراً حاسماً في متابعة الموضة أو عدم متابعتها ٠ ففي المدن المصرية ، باعتبارها نماذج للمجتمع الحضري ، تختلط الأزياء الحضرية بالأزياء الريفية باختلاط الانتماءات الجغرافية والمهنية والطبقية (حيث للمجتمع الحضري معاييره الخاصة للتدرج الطبقي) ، ويصعب تقسيم المجتمع إلي فئات عمرية، أو جيلية، على أساس الملبس فقط ٠ ورغم ذلك فإنه يلاحظ زيادة إقبال الشباب على متابعة أحدث ما تأتي به الموضة ، حيث يكون للاحتكاك الثقافي بالمجتمعات الأكثر "تقدماً " (ولو بالإطلاع دون المعايشة الفعلية) من خلال وسائل الإعلام والاتصال الحديثة ،أثر كبير في نشر الموضة وفي مثل هذا المجتمع المفتوح لا يكاد الفرد يشعر بوجود أي تعارض بين ما يلبسه هو وما يلبسه الآخرون في المجتمع وذلك لتعدد واختلاف الأزياء من ناحية ولعدم وجود الزي التقليدي الذي يرتبط بأي ضوابط دينية أو عرفية ، كالجلباب في الريف مثلاً ٠ وإن كان من الملاحظ بين كبار السن في المجتمع الحضري وجود ميل إلى ترجيح الالتزام بقدر من الاحتشام ومراعاة الاعتبارات الدينية دون تحديد واضح لما يجب أن يلبس الشخص كما أن نسبة لا يستهان بها من الشباب في المجتمع الحضري تعترض على " التقليد الأعمى" للموضة ، بينما ترحب بها إذا كانت " مناسبة" لشخصية الفرد وعمره وأخلاقيات المجتمع ٠ وفي مقابل العامل الديني المؤثر في المجتمع الريفي فإن العامل الاقتصادي يحتل مرتبة متقدمة في المجتمع الحضري بين العوامل التي تحدد مدى متابعة الموضة حيث ينظر إلي المال باعتباره العامل المتحكم في الملبس ٠

## ثانياً : الجوانب النفسية :

يتميز الجانب النفسي في السلوك الملبسي للإنسان بتوتر ملحوظ بين إحساس الإنسان تجاه ملبسه خارج المنزل حيث تعمل الملابس التي يرتديها على تهيئة " المسرح " للتفاعل الاجتماعي بين أفراد المجتمع ، وإحساسه تجاه ملبسه

داخل المنزل ، والذي يكون مختلفاً في المجتمعات الحضرية بالذات عن ملبس الخروج وأداء الأدوار الاجتماعية المحددة لكل فرد ٠

وعلى الرغم من إجماع جميع الأفراد الذين شملتهم المقابلات الشخصية ذكوراً وإناثاً ، في المجتمعين الريفي والحضري ، ممن يتابعون الموضة على أن ارتداء الملابس الحديثة وفقاً لأحدث اتجاهات الموضة يحقق للإنسان شعوراً هائلاً بالفخر والسعادة والرضى عن النفس ،فإن هناك إجماعاً وبنفس الدرجة على أن ارتداء هذه الملابس أو أي ملابس أخرى يستلزمها الدور الاجتماعي للفرد خارج البيت يشكل قيداً على حركة الفرد خاصة عند مقارنة شعور الفرد خارج المنزل في متابعته للموضة أو أدائه لدوره الاجتماعي ، بشعوره داخل المنزل حيث يتحرر من هذه الملابس المقيدة للحرية ويرتدي الملابس التي يعيش بها بين أفراد أسرته وتحقق له الراحة ، سواء كانت هذه الملابس حضرية (كالترينينج أو البيجامة مثلاً) أو ريفية (كالجلباب) ٠

ويرتبط بالتأثير النفسي للسلوك الملبسي من حيث مدى مسايرة الفرد للموضة ما يمكن أن نطلق عليه مكملات الملبس أو الهيئة العامة للشخص ، والتي تنتشر في المجتمعات المختلفة بنفس طريقة انتشار الموضة ٠ ومن هذه المكملات النظارات الشمسية وجهاز التسجيل المحمول والتليفون المحمول وسلاسل المفاتيح ٠ وربما كان ارتباط هذه المكملات بالتقدم التكنولوجي من ناحية والأوضاع الاقتصادية من ناحية أخرى هو السبب في انتشارها في المجتمع الحضري بدرجة أكبر من انتشارها في المجتمع الريفي ، حيث تستخدم في المجتمع الحضري كدليل وجاهة اجتماعية أو ثراء (حقيقي أو مزعوم) ، بينما أظهرت المقابلات الشخصية التي أجريت في المجتمعات الريفية أن الخجل من استخدام هذه المكملات مازال عاملاً مؤثراً يحد من استخدامها حيث يرى البعض أن استخدام هذه المكملات يتعارض مع الأعراف الريفية والتقاليد فضلاً عن العبء الاقتصادي الذي تمثله ٠

## ثالثاً : التأثير الاجتماعي للموضة بين الانتماء والاغتراب :

إذا كان ارتداء ملبس معين في مكان معين يخلق لـــدى الفـــرد إحساســاً بالانتماء إلى الجماعة (كارتداء القميص والبنطلون أو البذلة في مكـــان العمـــل ، وارتداء بذلة التدريب أو التريننج في النادي الرياضي ، وارتداء ثوب الاســتحمام على الشواطئ ، وارتداء الزي الموحد بين أفراد أي جماعة يتطلب عملها ارتـــداء هذا الزي ) فإن مسايرة الموضة تخلق نفس الإحساس بالانتماء بين جميع الأفراد الذين يتابعون الموضة سواء في المجتمع الريفي أو المجتمع الحضـــري ٠ وقـــد ذكر بعض الأفراد الذين شملتهم المقابلات الشخصية أنهم قد يضطرون إلى ارتداء ملبس معين لا يتناسب مع شخصيتهم أو عمرهم ، ولكنـــهم يرتدونـــه لمســـايرة الجماعة ، فالموضة في نظرهم هي مسايرة المحيطين بهم في ملبسهم وخاصـــة جماعة الأصدقاء كما أكد بعضهم أن جماعة الأصدقاء هـــي الجماعـــة الوحيـــدة المؤثرة في نوعية الملابس التي يرتدونها ٠ ومن هنـــا فـــإن الموضـــة تخلـــق إحساساً بالانتماء بين اتباعها بغض النظر عن المركز الاجتماعي أو الاقتصـــادي للفرد ٠ وحينما يكون النمط السائد للسلوك في جماعة ما هو الشعر القصير فـــإن الشخص الذي لا يلتزم بهذا النمط لا بد وأن يستشعر قدراً من التوتـــر النفســـي لخروجه على هذا النمط ٠ ويصدق ذلك أيضاً على الالتزام بملبس معين من حيث اللون أو الشكل (طريقة التفصيل) أو الخامة المستخدمة ٠

إن دراسة الشعور بالتوتر بسبب التعارض بين سلوك الفرد والنمط الســـائد في السلوك في الجماعة التي يعيش فيها هي المدخـــل الطبيعـــي لاختبـــار مـــدى تعارض الموضة مع منظومة القيم السائدة في المجتمع ٠ فإذا كان الخروج علـــى الموضة وسط جماعة تتمسك بها يمثل انحرافاً عن النمط السائد فإن اتباع جماعة معينة ككل للموضة يعتبر انحرافاً عن النمط السائد بين الجماعات الأخرى التـــي يتكون منها المجتمع ٠ ومع تفاوت الالتزام بأنماط الملبس التقليدية السائدة فـــي المجتمعين الريفي والحضري يتفاوت انتشار مسايرة الموضة في مجتمع المدينـــة

عنه في مجتمع القرية ، ويعتمد ذلك على مدى قوة ورسوخ التقاليد والأعراف التي يلتزم بها أفراد المجتمع ، ففي المجتمع الريفي حيث للدين سطوته وللأعراف والتقاليد تأثيرها القوى في سلوك الأفراد من خلال التنشئة الاجتماعية لأبناء الجماعة ، تعلل الجماعات الرافضة لمتابعة الموضة هذا الرفض بضرورة التمسك بالدين وتقاليد المجتمع الشرقي التي تؤكد على أهمية الاحتشام في الملبس ، وتنتقد بعض القيم التي ترتبط بالموضة كالإباحية (التعري) والشعور بالكبرياء والتميز عن الآخرين ، وتؤكد هذه الجماعات أيضاً ضرورة ارتداء ما يرضى عنه المجتمع ممثلاً في الأغلبية المتمسكة بالتقاليد ، وإن كان ذلك لا يمنع من وجود أفراد يجاهرون بعدم اقتناعهم بالعادات والتقاليد السائدة وبرغبتهم في تغييرها مبررين ذلك بأن جسم الإنسان ملك خالص له وأن الطريقة التي يتم بها تغطية هذا الجسم إنما تخضع لذوق الإنسان ولا دخل للمجتمع بها .

أما في المجتمع الحضري فقد كانت متابعة الموضة من المسائل التي أجمعت عليها الآراء تقريباً وكان التبرير الذي قدم لهذه المتابعة هو ضرورة أن يكون الإنسان أنيقاً وأن يكون مظهره جميلاً يحقق له الشعور بالفخر والرضى عنه نفسه ، وإذا كان هناك تعارض بين الموضة ومنظومة القيم فإن الغلبة في النهاية ستكون للموضة التي سيتقبلها المجتمع لتصبح نمطاً سائداً على نطاق أوسع يأخذ شكل الإلزام والسلوك الضروري للنجاح في العمل وفي علاقة الإنسان بباقي أفراد المجتمع .

## نتائج البحث

تم من خلال هذا البحث التوصل إلى النتائج الآتية :

١. إن دراسة الموضة - أو الطراز السائد من الملبس الذي يتمتع بالشعبية في فترة معينة - هي دراسة حديثة نسبياً يجب الاهتمام بها باعتبارها دراسة في التغير الثقافي والاجتماعي كما ينعكس في واحد من أهم جوانب الثقافة المادية وهو الملبس الذي يعبر بدوره عن الهوية الثقافية للإنسان فدراسة الموضة هي مدخل جيد لدراسة الهوية الثقافية للمجتمعات البشرية المختلفة.

٢. إن مثل هذه الدراسة تحتاج - بسبب الطبيعة الخاصة لموضوعها وما يرتبط به من عوامل نفسيه واجتماعية واقتصادية وتاريخية - إلى استخدام منهجية تستمد من مناهج البحث في العلوم المختلفة عدداً من الآليات أو الوسائل التي لا يمكن أن تندرج تحت أي منهج واحد .فتعدد التخصصات العلمية التي يمكن أن يمثّل ملبس الإنسان أحد اهتماماتها يترتب عليه منطقياً تعدد المناهج أو الطرق المستخدمة في بحث الظاهرة. ومن هنا فإن تحديد إطار العمل، ووضع التساؤلات ، وملاحظة الظاهرة ، واللقاءات الشخصية ، والوصف والتحليل ، كل ذلك يمثل آليات لها قيمتها عند دراسة موضوع كموضوع الموضة .

٣. تعتبر الموضة - من حيث هي ابتداع أو تقليد لشكل من أشكال الملبس - تغييراً مقصوداً في مظهر الإنسان وسلوكه يحمل رسالة لجميع أفراد المجتمع بأن احتكاكاً ثقافياً قد حدث وأنه لا بد للمجتمع من أن يستجيب لهذا الاحتكاك بالقبول أو بالرفض . وتعتبر استجابة المجتمع - أو بعض قطاعاته - للموضة خطوة أولى نحو تعديل أو إعادة صياغة الهوية الثقافية للمجتمع.

٤. إن الاستجابة السلوكية للتغيرات التي تطرأ على ملبس الإنسان تحت مسمي الموضة تكون في المجتمع الحضري أسرع منها - وأبعد تأثيراً - في المجتمع الريفي ، وذلك بحكم قوة ورسوخ التقاليد في المجتمع الريفي المغلق في مقابل تراخي قبضة هذه التقاليد في المجتمع الحضري وانفتاحه على المجتمعات الأخرى ٠

٥. تختلف العوامل التي تحد من انتشار الموضة في المجتمع الريفي عنها في المجتمع الحضري ، فعلى حين يلعب الشعور الديني والإحساس بسطوة التقاليد (وهو ما يتمثل في الإحساس بالخجل من مخالفة التقاليد ومتابعة الموضة) دوراً مؤثراً في عدم انتشار الموضة في المجتمع الريفي ، فإن العامل الاقتصادي هو الذي يحدد مدى قدرة الفرد على متابعة أحدث ما تأتي به الموضة في المجتمع الحضري ٠

# المراجع والهوامش

(١) Calefato, Patrizia: Fashion and Worldliness: Language and Imagery of the Clothed Body, in Fashion Theory; The Journal of Dress, Body & Culture, vol.1 issue1, March 1997, P.69.

(٢) Horn, Marilyn J. : The Second Skin, Houghton Mifflin Company, Boston, 1968, P.15.

ربما كان المغول هم أول من استخدم ملابس المنطقة القطبية حيث لم يكن بمقدورهم الهجرة إلى الجنوب بسبب حاجز جبال الهيمالايا ، وكان عليهم أن يتأقلموا مع الجو البارد ، أنظر :

(٣) Winick, Charles: Dictionary of Anthropology, philosophical Library Inc. New York, 1956, p.135.

(٤) ibid., p.136

(٥) Horn, Marilyn J., op . cit., p. 224.

(٦) Becker, Udo, editor: The Continuum Encyclopedia of Symbols, The Continuum Publishing Company, New York, 1996, pp.62 –63.

(٧) Horn, Marilyn J., op. cit p.10.

(٨) المرجع في مصطلحات العلوم الاجتماعية – نخبة من أساتذة قسم الاجتماع – جامعة الاسكندرية – دار المعرفة الجامعية – الاسكندرية ١٩٨٤ ، ص ١٨٤ .

(٩) سترة طويلة بصفين من الأزرار .

(١٠) معطف فضفاض بصف من الأزرار وأكمام تمتد حتى العنق .

(١١) معطف بصف أو صفين من الأزرار وياقة من القطيفة .

(١٢) معطف واق من المطر مزود ببطانة يمكن فصلها عنه وقد يكون بصفين من الأزرار وجيوب عميقة وحزام عريض وشرائط على الكتفين .

(١٣) قبعة بريتاني ، نسبة إلى مقاطعة بريتاني في شمال غربي فرنسا .

(١٤) قبعة مستديرة سوداء من الجوخ الصلب وتاج على شكل قبة وحافة ضيقة .

(١٥) قبعة منخفضة من الجوخ اللين ، ذات تاج مجعد .

(١٦) قبعة نسوية ضيقة على شكل جرس .

(١٧) حذاء منخفض ذو رباط .

(١٨) نعل يُشد إلى القدم بأشرطة جلدية .

(١٩) حذاء منخفض ليس له شريط ويحكم شده إلى الرجل .

(٢٠) حذاء عالي الساق .

(٢١) حذاء أيرلندي غليظ .

(٢٢) سراويل زرقاء ضيقة تزود أجزاؤها الأكثر تعرُّضاً للبلى بما يشبه الأزرار النحاسية المقوية ، وتصنع من الدينيم Denim أو الجين Jean ، وهما نوعان من قماش قطني متين مضلّع .

(٢٣) تنسب هذه السراويل إلى طلبة كليات الطبقات الراقية في شرقي الولايات المتحدة الأمريكية .

(٢٤) Horn, Marilyn J. op. cit. P. 146-149.

(٢٥) ibid., p. 442

(٢٦) ibid., p. 442.

(٢٧) المرجع في مصطلحات العلوم الاجتماعية – مرجع سابق ، ص ١٨٥ .

(٢٨) الأعراف – ٢٦ .

(٢٩) تفسير القرآن العظيم للحافظ بن كثير ، طبعة دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٧١ المجلد الثالث ، ص ٣٩٥ .

(٣٠) إيكه هولتكرانس : قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور – ترجمة محمد الجوهري وحسن الشامي ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٢ .

(٣١) Calefato, Patrizia, op. cit. P. 74.

(٣٢) ibid., p. 72-73.

(٣٣) Schwartz, Barton M. & Ewald, Robert H.: Culture And Society, An Introduction to Cultural Anthropology, The Roland press Company-New York, 1968, P. 439.

(٣٤) Calefato, Patrizia : op. cit. P.70.

(٣٥) Tripp, Rhoda Thomas: The International Thesaurus of Quotations, Penguin Books, Thomas Y. Crowell Company, Inc., 1970 P212,213

(٣٦) Ko, Dorothy : Bondage in Time: Footbinding and Fashion Theory, in Fashion Theory, The Journal of Dress, Body & Culture, vol.1, issue 1, March 1997, p.4

(٣٧) Calefato, Patrizia: op. cit. P. 75.

(٣٨) ibid., P.70.

(٣٩) Horn, Marilyn J. : op. cit . 79- 80.

(٤٠) Calefato, Patrizia : op. cit p. 72

(٤١) ibid., P.71.

(٤٢) ibid., P.74.

(٤٣) Palmer, Alexandra: New Directions: Fashion History Studies and Research in North America and England, in Fashion Theory, the Journal of Dress, Body & Culture, vol. 1 , issue 3, September, 1997, p.298

(٤٤) Steele, Valerie: Letter from The Editor, in Fashion Theory, The Journal of Dress, Body& Culture, Vol 1, issue 1, March 1997, P.1

(٤٥) Schwartz, Barton M.& Ewald, Robert H. op. cit. P.439.

(٤٦) Palmer, Alexandra : op. cit. P302.

(٤٧) ibid., P. 299.

(٤٨) ibid, P.302.

(٤٩) Horn, Marilyn J. op. cit. P. 113.

(٥٠) شوقي ضيف : تحريفات العامية للفصحى ، دار المعـــارف القـاهرة ١٩٩٤ ، ص ١٢٦ .

(٥١) أحمد تيمور : معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية إعداد وتحقيق د. حسين نصار ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤، الجزء الثالث ، ص ٤٣ .

(٥٢) فاروق مصطفي إسماعيل : الأنثروبولوجيا الثقافيـــة ، دار المعرفـة الجامعيـة ؛ الاسكندرية ، ١٩٨٤ ، ص ٦٤ .